

وحروب الردة

هانی المبارک

توددت كثيراً قبل أن أمسك القلم لأخط كلمات عن حياة خالد بن الوليد وعن مواقفه خلال حروب الردة، وهو بطل هذه الحروب وعمادها والسيف الذي أعاد الوحدة إلى جزيرة العرب، إنه بطل حروب توقف على نتیجتها مصیر أمة، ومصیر دولة ناشئة أسسها رسول الله (ص)، ومن هنا تأتي أهمية هذه الشخصية العسكرية النادرة في سيرتها، والتي حملت بين

جَنَابَتَهَا صِفَاتُ أَنْ أَوْفِيهِ حَقَّهُ أَوْ بَعْضَ حَقِّهِ. وَقَفْتُ مُسْتَعْرِباً كَيْفَ وَجَدْتُ أَقْلَامَ تَجَرَّاتٍ عَلَى تَوْحِيدِ بَعْضِ سِهَامِ النَّقْدِ إِلَيْهِ؟ فَقُلْتُ مَنْ أَنَا؟ وَمَنْ هَؤُلَاءِ حَتَّى نَتَجَرَّأَ عَلَى النَّيْلِ مِنْ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ خَالِدِ قَبِيلٍ وَفَاتِهِ: "لَيْسَ فِي جِسْمِي مَوْضِعٌ شَبَرَ إِلَّا وَفِيهِ طَعْنَةٌ بِرِمَحٍ أَوْ ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ أَوْ رِمِيَّةٌ بَنْبُلٍ، وَهَآنَذَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْبَعِيرُ فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجِنَانِ". وَكَذَلِكَ سَتَكُونُ سِهَامُ النَّقْدِ النَّاجِمَةُ عَنْ حَقْدٍ أَوْ حَسَدٍ أَوْ تَعْصَبٍ غَيْرِ مُؤَثِّرَةٍ فِي سَمْعَةِ خَالِدٍ بَلْ سَتَكُونُ مَعَ أَصْحَابِهَا:

كَنَاطِحَ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيُوهِنَهَا فَلَمْ يَضُرَّهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلَ

لهذا كله تركت التردد وأمسكت القلم لأحدث عن دور خالد في حروب الردة وعن تلك الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا وقد كادت وحدة الجزيرة العربية أن ينفرط عقدها بعد وفاة رسول الله (ص) بحث لم يبقَ على الولاء لتلك الدولة من مناطق جزيرة العرب إلا الحجاز، بل وحتى الحجاز كانت بعض القبائل المجاورة له تنهياً للإغارة عليه.

وبرغم ما ذكرته عن عظمة شخصية خالد وعبقريته الفذة والنادرة بين تاريخ القادة في العالم من أصحاب العبقريات العسكرية أقول سلفاً إنني أتحدث عن إنسان من البشر وليس عن ملك من الملائكة، ولكل إنسان أخطاء وهفوات لكن عظمة الرجال تظهر حين تضيق هفواتهم وسط إعصار عظمتهم وضخامة أعمالهم.

لقد التفت عزيمة القيادة السياسية المتمثلة يومئذ بالخليفة الأول أبي بكر الصديق، مع عبقرية القيادة العسكرية المتمثلة ببطل العرب والإسلام خالد بن الوليد وذلك في حروب الردة، فحقق ذلك نتائج رائعة في حفظ وحدة الدولة ودفع بها في طريق الدعوة لرسالتها لأهل الأرض في زمن لا يمكن معه تحقيق ذلك إلا بوصول الدعاة إلى كل مكان.

بدأت الردة في أواخر حياة الرسول (ص) وذلك برِدَّة الأسود العنسي في اليمن وردَّة مسيلمة الكذاب في البصرة.

أما الأسود العنسي فقد اغتاله أبناء اليمن المسلمون الذين قوي تمسكهم بالإسلام بعد أن أرسل إليهم رسول الله (ص) معاذ بن جبل ليعلمهم أمور دينهم وبمقتل الأسود قضى على حركة الردة في اليمن. وحدث مثل ذلك في عُمان حيث قوي إيمان المسلمين وقوي مركزهم بعد أن أرسل رسول الله (ص) إليهم عمرو بن العاص، فضعفت حركة الردة وتزعزع مركز المرتدين الذين كانوا قد التقوا حول لقيط بن مالك الأزدي.

وكذلك تراجعت حركة الردّة التي ظهرت في منطقة الإحساء، أو ما كان يعرف باسم البحرين، متمثلة بالمنذر بن النعمان وذلك حين تصدى لها العلاء بن الحضرمي ومجموعة من المسلمين الذين لم يتزعزع الإيمان بالدين الجديد في نفوسهم، كما لم يتزعزع ولاؤهم لمركز الدولة في المدينة المنورة.

أما مسيلمة الكذاب فقد عظم خطره بعد أن التفت حوله جموع بني حنيفة في منطقة اليمامة وزاد خطره بعد تحالفه مع المتنبئ سجاح وتأييد أتباعها من بني تغلب لحركة الردة — كما سيأتي فيما بعد

انتقل الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى، وخطر مسيلمة وسجاح يهددان كيان الدولة العربية الإسلامية بالتجزئة، ويهددان عقيدة التوحيد بالزوال، ويشجع أصحاب القلوب الضعيفة بإيمانها على الردة والامتناع عن الطاعة للمدينة المنورة، وللخليفة فيها أبي بكر، والخضوع لقبيلة قريش، حتى قال قائلهم:

أَطْعَمَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِذَا كَانَ بَيْنَنَا

أبوتها بكرة إذا مات بعده؟ وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وهكذا عادت العصبية القبلية ترفع رأسها من جديد ولما يدخل الإيمان إلى قلوب معظم أبناء القبائل العربية خارج الحجاز حتى صار قائلهم يقول: كذاب ربيعة خير من صادق مضر. ورأت بعض القبائل أن دفع الزكاة إلى المدينة المنورة يمثل خضوعاً لقريش مما كانت تأباه نفوس القبائل العربية قبل الإسلام عصبية لكرامتها وعزة لنفوسها.

لقد أثبتت الأحداث أن اختيار المسلمين لأبي بكر خليفة للرسول (ص) في حكم الرسول الإسلامية الفتية الجديدة كانت اختياراً موفقاً وكان الحاكم الجديد أهلاً لحمل المسؤولية وتعبئة جميع

إمكانات الأمة للوقوف بوجه خطر حركة الردة والتمرد بعزم ينذر مثيله، إنه خطر كبير هدد وجود الدولة وكيانها وهدد عقيدتها ووحدتها، بعد أن تعددت مناطق الردة، وكثرت القبائل المتمردة والرافضة لحكم المدينة المنورة. فجاء عزم الخليفة وإرادته الصلبة التي ما عرفت التردد والضعف، وجاء أيضاً سيف الله خالد بن الوليد، ليقف في وجه أعداء الوحدة في العقيدة والوحدة في الدولة؛ فالردة لم تكن ردة دينية فقط بل هي أيضاً حركة تمرّد سياسي تهدف إلى الانفصال وتجزئة الدولة.

وليس هنا مجال البحث في أسباب حركات الردة فهو موضوع يحتاج إلى كلام طويل وبحث خاص، ويمكننا لاستكمال الصورة هنا أن نلخص تلك الأسباب بما يلي:

1 — ضعف إيمان القبائل المرتدة والمتمردة، فإن معظم القبائل التي ظهرت الردة بين صفوفها كانت قد اعتنقت الإسلام في فترة متأخرة، أي في أواخر حياة الرسول (ص). فهي لم تعيش تجربة الإيمان والعيش الطويل مع رسول الله (ص)، على عكس ما كان الحال بالنسبة لأهل الحجاز.

2 — العصبية القبلية التي يمثلها قول من قال لمسيمة: والله إنني أعلم أنك كذاب وأن محمداً صادق، لكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر.

صحيح أن أبا بكر أرسل أحد عشر جيشاً إلى جميع مناطق التمرد والردة والخطر في شبه جزيرة العرب، مستهدفاً القضاء على حركات الردة، سواء أكانت ردة كاملة عن الإسلام، أو كانت ردة جزئية بامتناعها عن دفع الزكاة. لكن اعتماده في هذه الجيوش كان بالدرجة الأولى على من اقترن اسمه باسم حرب الردة وهو سيف الله خالد بن الوليد الذي شكل ما يشبه العمود الفقري، والدعم الأساسي لتلك الجيوش التي انطلقت من المدينة المنورة. وعهد الخليفة أبو بكر إلى خالد بحمل المسؤولية الأولى في هذه الحروب، إنها عبقرية القائد السياسي أبي بكر في اختياره للرجل المناسب في وقت عصيب لحمل أخطر مهمة يتوقف عليها بقاء الدولة أو زوالها. وكذلك كان نجاحه في تنظيم هذه الجيوش والتنسيق بين تحركاتها وسرعة الاتصال بقادتها وإمدادها، كل ذلك كان له دور كبير في نجاحه في تنظيم هذه الجيوش والتنسيق بين تحركاتها وسرعة الاتصال بقادتها وإمدادها، كل ذلك كان له دور كبير في نجاحها في تحقيق مهماتها وإحراز الانتصارات المتتالية وإعادة الوحدة للدولة العربية الإسلامية.

لقد ظن المتمردون المرتدون أن الفرصة مواتية جداً لتحركاتهم عندما سمعوا بوفاة رسول الله (ص)، وبتسليم أبي بكر لمنصب الخلافة، وبارسالة جيش أسامة بن زيد إلى أطراف بلاد الشام، مما أوهمهم بضعف المسلمين في الحجاز. وإذا بهم يُفاجئون بقوة شخصية أبي بكر مما ينذر مثيله في مثل هذه الأحوال الخطيرة التي تكاد تعصف بالدولة وتقضي على وحدتها.

وهنا نظهر لنا خطورة المهمات التي عهد بها الخليفة إلى خالد بن الوليد، حيث تم توجيهه إلى أخطر تلك الحركات وأكثرها قوة وأتباعاً وهي حركة طليحة الأسدي في بُراخة، وحركة مالك بن نويرة في البُطاح، وحركة مسيمة الكذاب في اليمامة، وتؤيده حركة المتنبئة سجاح من بني تغلب في

العراق. وهكذا نرى أن خالداً بن الوليد حمل العبء الأكبر والأهم في حروب الردة وفي قتال المرتدين، وبلغه اليوم الانفصاليين المتمردين على الدولة.

كانت الخطة العسكرية التي وضعها الخليفة أبو بكر تقوم على تقسيم قواته إلى عدد من الجيوش كان أقواها الجيش الذي يقوده خالد بن الوليد، لأن هذا الجيش سيحارب أخطر حركات الردة المتمثلة بحركة طليحة ومالك ومسيلمة وسجاح. بينما أرسلت بقية جيوش المسلمين في مهمات مساندة لخالد أو لمواجهة بعض المرتدين الثانويين. وتقوم الخطة على ضرب قوات المرتدين، كل منهم على انفراد، قبل أن تتحالف وتتجمع فتشكل خطراً كبيراً يصعب القضاء عليه.

خالد وطليحة:

كانت الخطة العسكرية تقضي بأن يبدأ خالد بقتال طليحة الأسدي في منطقة بُزَاخَة بين جبلي أجأ وسلمى إلى الشمال الشرقي من المدينة المنورة. ومنها ينتقل إلى البطاح لتأديب مالك بن نويرة ومنها إلى اليمامة لضرب أخطر هؤلاء المرتدين المتمردين مسيلمة الكذاب.

كان أبو بكر قد أوصى ألا يحارب أحداً قبل أن يدعوهم إلى الإسلام، أي يدعوهم للعودة عن التمرد والردة وإعلان الولاء للدولة وخليفتها، وأن يحرص على هداهم فمن أجاب قبل منه ومن رفض قاتله وكل به.

أما طليحة فكان زعيماً لقبيلة بني أسد، وقد بدأ عداؤه للإسلام وللرسول (ص) في وقت مبكر، وكشف عن هذه العداوة بعد غزوة أحد بثلاثة أشهر مستغلاً هزيمة المسلمين وخسارتهم في تلك الغزوة فعزم على مهاجمة المدينة المنورة، لكن الرسول (ص) أرسل قوة من فرسان المسلمين فرقت جموعه، وقضت على مشروعه، وغنمت ماشية قبيلته المتأخرة.

ثم شارك مع قوة من قبيلته بني أسد في غزوة الخندق أو الأحزاب — وعاد مع رجاله خائباً بعد انسحاب قريش وأحلافها.

وفي السنة السابعة للهجرة حاول عرقلة هجوم المسلمين على خيبر لكنه أخفق، وانسحبت قبيلته. وفي السنة التاسعة للهجرة جاء وفد من بني أسد يعلن إسلام قبيلته، وهكذا انتهى عداء بني أسد وزعيم طليحة بإسلامهم في عام الوفود، فكان إسلامه مع قبيلته إسلاماً سياسياً لم يصل بهم إلى الأعماق حيث ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا، قُلْ لَمْ تَمُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا اسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (سورة الحجرات 49 الآية 14)

وبدأ يكشف عن رده عندما سمع بمرض الرسول (ص) فادعى طليحة أنه نبي، وازداد ردة وتمرداً بعد وفاة الرسول (ص) وتلقى تأييداً لردته وتمرده من قبيلتي غطفان وطئ.

كانت بداية لقاء جيش خالد بن الوليد مع المرتد المتمرد طليحة الأسدي حين لقي رجال من طليحة جيش خالد أبا طليحة فقتلوه - وهو حبال - وتصدى لهم طليحة وأخوه سلمه فقتلا ثابت بن أفرم وعكاشة بن محصن. وتآلم خالد لما أصاب رجاله على أيدي هذه المتمرد الخطير، لكنه لم

يستعجل السير نحو جموع طليحة بل عمد إلى التريث وتأخير اللقاء الحاسم مستفيداً من خيبراته العسكرية، محاولاً كسب بعض القبائل المؤيدة لطليحة، وبدأ بقبيلة طيئ وكانت وسيلته إليها أحد وجوه القبيلة وهو عدي بن حاتم الذي نجح بإقناع مجموعة كبيرة من قبيلته بالعودة إلى حظيرة الإسلام والولاء للدولة والرجوع عن الردة والتمرد وجاء بعدد من فرسانها وعددهم حوالي خمسمائة فارس والتحقوا بقوات خالد، كذلك نجح عدي بن حاتم في إعادة بني جديلة عن ردتها وتمرداها إلى الطاعة والإسلام والتحق منهم حوالي ألف مقاتل بجيش خالد.

وهكذا اطمأن خالد بن الوليد إلى وضع القبائل المجاورة، كما كان مطمئناً إلى وضع قواته نظاماً وطاعة وانضباطاً وحماسة، فتقدمت وهو على رأسها نحو طليحة الذي كانت تتجمع قواته في منطقة بُزَاخَة، وهي مؤلفة من بني أسد ومن لحق بهم من بني فزارة وغيرها. وتبعاً لوصية الخليفة عرض خالد على طليحة شروطه، وهي العودة عن الردة والتمرد إلى الإسلام والطاعة ورفض طليحة شروط خالد فكان لابد من الحرب. وكان خالد قد نظم قواته بحسب القبائل فعقد راية طيئ لعدي بن حاتم، وعقد راية الأنصار لثابت بن قيس، وعقد الراية العامة لزيد بن الخطاب.

بدأ القتال بحماسة من المسلمين واستماتة منهم، بعد أن رأوا قائدهم خالد بن الوليد يفتح أشد المواقع خطورة، وهو ينادي بأعلى صوته: الله، الله، مشجعاً ومحرضاً على القتال منتقلاً على فرسه من الميمنة إلى الميسرة فانصرف بنو فزارة وخرجوا من صفوف المرتدين المتمردين، وعلى أثر ذلك فر طليحة وزوجه باتجاه بلاد الشام ملتجئاً إلى بني كلب، وعاد بنو عامر وبنو سليم وهوازن إلى الإسلام والولاء والطاعة للخليفة في المدينة المنورة.

ووقع قائد بني فزارة بالأسر وهو عيينة بن حصن، فأرسله خالد إلى المدينة المنورة فتاب بين يدي أبي بكر وأعلن إيمانه وعودته إلى حظيرة الإسلام فقبل منه ذلك وحسن إسلامه.

بقي خالد شهراً في بُزَاخَة يطهر المنطقة من المتمردين المرتدين ويلاحق بصورة خاصة أولئك الذين غدروا بالمسلمين وقتلوا منهم، وذلك تنفيذاً لتعليمات الخليفة أبي بكر الذي كتب إلى خالد بعد انتصاره على طليحة في بُزَاخَة يقول: "لِيَزِدْكَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ خيراً... جِدْ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَلَا تَتَيْنَنَّ، وَلَا تَظْفَرَنَّ بِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا قَتَلْتَهُ وَنَكَلْتَهُ بِهِ غَيْرَهُ..." وهكذا أخذ خالد يعامل المتمردين المرتدين بمنزل ما فعلوه بالمسلمين من قتل وحرق ورمي من شواهد الجبال. ومع ذلك فقد تجمعت فلول من قوات طليحة من غطفان وبني سليم وطيئ وهوازن وأسد، حول امرأة تسمى أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة وحرصتهم على قتال جيش خالد فقاتلها المسلمون وأبدى خالد جراً عظيمة في قتالها فعقر جملها وقتلها وهزم جموعها وتم له النصر عليها.

وبذلك أنهى خالد بن الوليد المرحلة الأولى، بالقضاء على حركة طليحة بن خويلد الأسدي وبدأ يستعد للمرحلة الثانية وهي:

حركة مالك بن نويرة التميمي:

كان مالك بن نويرة زعيم بني يربوع وهم فرع كبير من قبيلة بني تميم ومركز عشيرته في البطاح - بين جبل سلمى واليمامة. وكان قد تزوج من ليلي بنت المنهال المعروفة باسم أم تميم التي اشتهرت بجمالها حتى قيل إنها أجمل بنات الجزيرة العربية، وحين اعتنق بنو تميم الإسلام عتبه رسول الله (ص) زعيماً على عشيرة بني حنظلة وكلفه بجمع أموال الزكاة منهم، وعندما سمع بوفاة الرسول (ص) ارتد عن الإسلام، وأعاد أموال الزكاة المجموعة لديه إلى دافعيها من بني حنظلة.

تابع خالد مع قواته المسير نحو بني تميم وزعيمهم مالك بن نويرة في البطاح وأذن المسلمون كما أمرهم أبو بكر واستجاب بعض بني تميم فأعلنوا الطاعة والعودة إلى الإسلام، ورفض آخرون إلا الإصرار على التمرد والردة وعلى رأسهم مالك الذي وقع بالأسر مع الكثيرين من بني تميم.

تقول إحدى الروايات التاريخية إن مالكا والأسرى قتلوا نتيجة اختلاف في فهم معنى كلمة أدفنوا أسراكم. وقد قالها خالد لجنوده في ليلة شديدة البرد، وأدفنوا بلغة كنانة تعني اقتلوا، فقام الجند بقتل الأسرى وقتل ضرار بن الأزور مالك بن نويرة، وكان ضرار كنانياً.

وتقول رواية أخرى بأن خالد بن الوليد حاور مالك بن نويرة بعد أسره حول متابعته للمتنبئة سجاح عندما مرت بمنطقته، وبامتناعه عن دفع الزكاة، ويقول عن رسول الله (ص): إن صاحبكم يزعم.. كل ذلك أغضب خالداً فأمر بضرب عنقه فقام ضرار بن الأزور بقتل مالك بن نويرة. وأرجح صحة الرواية الثانية فقد أثار مقتل مالك مشكلة حين اختار خالد الزواج من أرملة مالك أم تميم، فتحدث بذلك بعضهم وتحركت ألسنة تنتقد عمل خالد بل وصل بعضهم إلى اتهام خالد بأنه قتل مالكا ليتزوج بزوجته. وفي مثل هذه الأحوال عادة يلعب الخصوم والحساد دوراً في تزوير الحقائق وتضخيم الوقائع وتشويه الأحداث، للوصول إلى تحقيق أهدافهم وإرضاء نفوسهم. وهذا الأمر نجده في جميع المجتمعات قديمها وحديثها وخاصة بالنسبة لأصحاب الشهرة من عظماء الرجال وكبار القادة، حيث نجد المعارضين والحساد والخصوم يصطادون في الماء العكر وينسى هؤلاء أن أولئك العظماء بشر ويخطئون كما يخطئ البشر وليسوا ملائكة معصومين، وأن ما قام به خالد يومئذ إنما هو تصرف لا يخالف عادات العرب لا في الجاهلية ولا في الإسلام. أما الأمر السيئ المخالف لأخلاق العرب فإنما هو الاختلاق والكذب والتشهير في غير حق، كالذي قام به بعضهم ففسروا الحادث كما صورته لهم نفوسهم - الحاقدة أو الجاهلة - ونسي هؤلاء أنهم أمام شخصية اتصفت بالورع والتقوى وبالرجولة والبطولة وأنه منح أمته من الأعمال والبطولات ما يعجز عن مثله مئات الرجال الأبطال بل ألوفهم. والدليل على ما أقول أن سيرة خالد قبل حروب الردة وبعدها تثبت ذلك، فقد كان متمسكاً بأخلاق الإسلام، وقد شارك في قيادة الجيوش التي حررت بلاد الرافدين وبلاد الشام وقاد معركة اليرموك. ولم يعرف عنه أي خلق مخالف لما تقتضيه أخلاق الإسلام وتعاليمه، بل رأيناه يعزل من قبل الخليفة عمر بن الخطاب عن القيادة وهو في قمة المجد العسكري فينفذ الأمر

مع الجيش يقاتل كجندي في سبيل الله. ويأتي من يحاسبه من قبل الخليفة عمر على أموال صرفها فيظهر من التحقيق أنها من أمواله الخاصة وتثبت براءته.

وما تذكره بعض الأقلام وتحدث به بعض الألسنة من تنكيله وتمثيله بمالك بعد قتله وقطع رأسه وحرقه بالنار، فهي صورة بعيدة كل البعد عن أخلاق خالد بن الوليد وقد خاض عشرات المعارك وقتل وأسر الكثير من أعدائه الفرس والروم، فما سمعنا أنه قام بعمل غير أخلاقي يتنافى مع وصايا رسول الله (ص) وخليفته أبي بكر في معاملة القتلى والأسرى، مما يدعونا إلى رفض تلك الروايات والتي يعود معظمها إلى تأثر أصحابها بأهواء من حقد وحسد أو من حب في شهرة تكسب على حساب النيل من عظمة عظيم أو بطولة بطل وبئس الرجال ينال شهرة عن هذا السبيل.

إن تاريخ السدول والشعوب الأخرى مليء بأحداث مخزية وصور سوداء، لكنهم يظهرون من تاريخهم الوجه الجميل ويضربون صفحاً عن الصور السوداء والمخزية وما أكثرها في تاريخهم. أما أن نخترع أحداثاً سوداء وصوراً مخزية اختراعاً، وليس لها وجود إلا في أذهان من فسر بعض الحوادث على هواه وزور واختلق ليسيء إلى تاريخ أمته المجيد، فهذا أمر غريب لا نجد له مثيلاً لدى الأمم التي تغار على تاريخها وسمة ماضيها وأبطالها وعظماؤها. قبل أن نترك قضية مالك بن نويرة وحادثة قتله على تمرده وردته ونزداد اطمئناناً إلى سلامة عمل خالد بن الوليد لا بأس من أن نطلع على حوارين حدثا بين خالد ومالك، وبين عمر بن الخطاب وأخ لمالك. أما الحوار الأول. فقد كان قبيل ضرب عنق مالك حيث قال خالد معاتباً ومؤنباً مالكا على متابعتة للمتنبئة سجاح عند مرورها بمنطقته، ثم أنبئه على رفضه تأدية الزكاة قائلاً: ألم تعلم أن الزكاة قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك. عندئذ غضب خالد وقال: هو صاحبنا وليس بصاحبك؟ وصاح بضرار بن الأزور قائلاً: اضرب عنقه، ففعل.

والحوار الثاني: كان بين عمر بن الخطاب ومتم بن نويرة - أخي مالك - فقد قال عمر لمتم: لوددت أني رثيت أخي زيدا بمثل ما رثيت به مالكا أخاك - وكان زيد بن الخطاب قد استشهد في حروب الردة - فقال متم: يا أبا حفص، والله لو علمت أن أخي صار حيث صار أخوك ما رثيته، فقال عمر: ما عزاني أحد بمثل تعزية متم. وهذه شهادة أخ مالك بأنه مات على ردة وتمرد لا على إسلام وطاعة.

إن صورة خالد بن الوليد ستبقى، ويجب أن تبقى، منزهة بعيدة عن كل ما يشوه جمالها وعظمتها ويسيء إلى عبقريتها وبطولاتها، لما له من مواقف مجيدة ورائعة في رسم تاريخ أمتنا العربية، إنه نموذج نادر يريد أعداء الأمة تشويه صورته البطولية لئلا يكون قدوة لشباب العرب في تضحياتهم وإخلاصهم وجرأتهم واستماتتهم في الذود عن أرض الوطن والحفاظ على عقيدة الأمة ومقدساتها.

ومن الجدير بالذكر أن الحقد والحسد والضغينة والخلاف تلعب دوراً كبيراً في الدس وتشويه الحقائق للإساءة إلى الشخص المقصود بالحسد والحقد عليه. ومن الملاحظ أن الرجل الذي حمل

104

يقاتل حتى فتح أحد أبوابها واندفع المسلمون منه، وبدأ قتال مرير انتهى بانتصار المسلمين بقيادة خالد بن الوليد وهزيمة المرتدين ومقتل نبيهم الكذاب مسيلمة.

ومن الصور الأخرى لمعركة حديقة الموت صورة مسيلمة حيث ذكرت الروايات التاريخية أن مسيلمة لجأ أثناء القتال داخل الحديقة بعد اقتحام المسلمين لها إلى ثلثة في جدار وكان في حالة شديدة من الخوف، مما أصاب قواته من الهزائم والخسائر فرآه وحشي العبد الحبشي الأسود قاتل حمزة في غزوة أحد، فسارع إليه وأطلق حربته فأصابته وخرجت من الطرف الآخر منه. وأسرع إليه أيضاً أبو دجانة سمالك بن خرشة فضربه بالسيف وقضى عليه.

يقول وحشي بأنه خرج مع المسلمين إلى اليمامة وأخذ معه الحربة التي قتل بها حمزة - عم الرسول (ص) - فلما رأى مسليمة سدد إليه حربيته ودفعها نحوه فوقعت فيه، وشدّ عليه رجل من الأنصار وهو عبد الله بن زيد بالسيف، والله أعلم أينما قتله فإن كنت أنا قد قتلتَه أكون قتلت خير الناس بعد رسول الله (ص) وهو عمه حمزة، وقتلت شر الناس وهو مسليمة الكذاب.

بعد معركة حديقة الموت:

كان مجاعة بن مرارة أحد رجال بني حنيفة قد وقع في الأسر بيد المسلمين، فأخذ خالد بن الوليد وخرج معه يتجول في ساحة المعركة في حديقة الموت، ليتعرف بواسطته على جثة مسليمة الكذاب، وربما ليزداد يقينا بمقتله، فلما وصلا إلى مسليمة قال مجاعة: هذا صاحبكم. فقال خالد: قبحكم الله على اتباعكم هذا.

ومما ورد في أخبار خالد خلال حربه لمسيمة أن مجاعة أوقع خالداً بخديعة وذلك حين عزم خالد على غزو حصون اليمامة ولم يكن فيها سوى النساء والصبية والشيوخ. لكن مجاعة أوهم خالداً بأن تلك الحصون ممتلئة بالمقاتلين من بني حنيفة وطلب منه مصالحة عنهم، فصالحه خالد، ثم ذهب مجاعة ليأخذ الموافقة من في الحصون على ذلك الصلح، وطلب من النساء أن يلبسن الدروع والخوذ وأن يظهرن من الحصون فما نظر خالد إليهن ظن أنهن رجال مقاتلون كما قال له مجاعة، وتم الصلح ودعاهم خالد إلى الإسلام فأسلموا جميعاً. وتقول هذه الرواية التاريخية إن الخبر حين وصل إلى الخليفة أبي بكر عاتب خالداً على أنه خدع من قبل مجاعة، كما عاتبه على سرعة زواجه وهو وسط جهاد ودماء وشهداء. فكان جواب خالد لأبي بكر في رسالة بعث بها مع أبي برزة الأسلمي جاء فيها: أما بعد فلعمري ما تزوجت النساء حتى تم لي السرور وقرت لي الدار... وأما حسن عزائي على قتل المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقى حياً أو يرد ميتاً لأبقى حزني الحي ورد الميت، ولقد أقحمت في طلب الشهادة حتى ينست من الحياة وأيقنت بالموت... وأما خدعة مجاعة إياي فلم يكن لي -علم بالغيب، وقد صنع الله للمسلمين خيراً، أورتهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين.

وأعتقد أن خالد بن الوليد كان يقدر أوضاع المجاهدين من المسلمين الذين كانوا في حالة شديدة من التعب، فهم على درجة كبيرة من الإنهاك بعد حروب متواصلة خاضوها مع قوات طليحة في

بزاحة ثم مع قوات مالك بن نويرة في البطاح، ثم خاضوا معارك رهيبة مع قوات مسيلمة انتهت بمعركة - حديقة الموت، ولهذا فإنه كان يبحث عن حل يتيح لقواته فرصة للراحة - وهذا من صفات القائد العسكري الناجح - فجاء عرض مجاعة لعقد صلح مع بني حنيفة خاصة وأنهم عادوا إلى الإسلام فكان لابد من تلبية مطالبهم، إنه تفكير قائد عسكري فذ يبحث عن مصلحة قواته لتكون دائماً جاهزة لتلبية ما يطلب منها والحكمة تقول: إذا أردت أن تطاع فسل المستطاع. وخالد يعلم أن أمام قواته مهمات خطيرة وكبيرة عليها أن تقوم بتنفيذها، فأمام هذا الوضع كان لا بد لخالد بن الوليد أن يقبل بذلك الصلح المشرف الذي يتيح لقواته فرصة للراحة وينسجم مع شريعة الإسلام بعد أن أعلن بنو حنيفة عودتهم للإسلام بعد مقتل النبي الكذاب مسيلمة.

ويؤكد ما ذهب إليه ما ورد في رسالة أخرى أرسلها خالد بن الوليد إلى الخليفة أبي بكر بعد عقده الصالح المذكور مع بني حنيفة يقول فيها: ... أقسم بالله إنني لم أصالحهم حتى قبل من كنت أقوى به، وحتى عجب الكراع، وهلك الخف، ونهك المسلمون بالقتلة والجراح، ...

إنها صورة مؤلمة للحالة التي وصل إليها المسلمون من التعب والإنهاك والجراح. ولهذا تقول الرواية: إن أبا بكر سر بعد قراءته لهذه الرسالة.

نهاية المتنبة سجام:

سجام بنت الحارث بن سويد كانت تعود بنسبها من جهة أبيها إلى بني يربوع، ومن هنا كانت على قرابة مع مالك بن نويرة، بينما تعود بنسبها من جهة أمها إلى بني تغلب الذين كانوا يقيمون في بلاد الرافدين، وهذا ما جعل الرواة يقولون بأنها كانت نصرانية أي على دين بني تغلب. وعندما بدأت حركات الردة خاصة بعد وفاة رسول الله (ص) وسمعت بردة طليحة ومسيلمة، بدأت بإعلان نبوتها وتبعها عدد كبير من بين تغلب ومن بني يربوع وسارت إلى منطقة نجد حيث أرسلت إلى مالك بن نويرة تقترح عليه مهاجمة المدينة المنورة معاً. ثم اتفقا على مهاجمة بعض القبائل المعادية لبني تميم وتغلب. لكن قواتها أخفقت في صدامها مع بعض القبائل في منطقة نجد فاتجهت مع أتباعها نحو اليمامة واجتمعت هناك بمسيلمة الكذاب وعرض عليها نصف الأرض، ثم عرض عليها الزواج فقبلت به زوجاً وجعل مهرها وضع صلاتين مما فرضه محمد (ص) وهما صلاة الفجر وصلاة العشاء. ثم لما بلغها سير خالد بن الوليد بقواته نحو منطقة اليمامة بعد أن قضى على حركتي طليحة ومالك بن نويرة، عادت إلى منطقة بلاد الرافدين وبقيت بين قومها من بين تغلب ثم عادت إلى الإسلام وحسن إسلامها. وتوفيت في عهد الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان في مدينة البصرة، وقيل بل كانت وفاتها في مدينة الكوفة.

في ختام هذا البحث أستطيع القول إن لخالد بن الوليد الفضل الكبير في توطيد أركان الدولة العربية الإسلامية وحفظ وحدتها، فهو القائد العسكري الأول في حروب الردة وصاحب اليد الطولي في قمع حركات المرتدين، التي كانت حركات تمرد وانفصال. فقد كان بحق سيف الله المسلول، دُلَّ

